لا مركزية السلطة والممارسة الديمقراطية

كثيرا ما يكون موضوع التعاون الكلي الشامل , وهو التعاون الذي يربط الباحث والراوي اثناء جميع مراحل انتاج المعرفة , كثيرا ما يكون من الموضوعات الجذابة التي تستهوي اولئك الذين يعملون انطلاقا من رؤى نظرية نقدية , بما فيها من الاطر الفكرية النسوية و التعددية الثقافية. وبالمثل , فان هذا المنحى قد يكون مناسبا للمشروعات البحثية الهادفة لاحداث التغيير الاجتماعي او لدعم حركات الناشطين الاجتماعيين . وترتيبا على ذلك , ولان الرؤى النقدية والبحث المهتم بالحركات الاجتماعية اخذان في الزيادة والظهور, فاننا نرى زيادة في البحث ذي الطابع التعاوني. ويثير ذلك الامر هذا السؤال: لماذا ينجذب اولئك الافراد من الباحثين والناشطين لموضوع اقتسام السلطة؟

ان التاريخ الشفاهي منحى متميز لان لديه القدرة على منع تمركز السلطة, بل واقتسام تلك السلطة فعلا .

وكما ورد فان الباحث كان يحظى على امتداد التاريخ بدرجة من الافضلية باعتباره الطرف العارف, كما كان يحتكر السيطرة على عملية البحث وعلى المعرفة الناتجة عنه. وقد كانت سلطة الباحث على البيانات تشتمل كذلك على سلطته على تحليل المعرفة الناتجة عن البحث , وعرضها او كتابتها , ونشرها . مثال ذلك : هل سيتم نشر هذه النتائج ام لا؟ واين ستنشر؟ و كيف سيتم الانتفاع بها؟ ويسلم التاريخ الشفاهي بان المشارك في البحث ( اي المبحوث ) له من الخبرات الحياتية , والافكار, والمشاعر ما يمكنه ان يساعدنا على ان نفهم الحقيقة الاجتماعية او نفهم جانبا ما منها على وجه افضل . معنى ذلك ان لدى هذا المبحوث معرفة متميزة ذات قيمة غالية. وهذا الراوي هو وحده الذي يعرف قصته الشخصية ومن ثم فانه يؤدي دور الراوي. وبهذا الشكل تتيح طريقة البحث هذه للمبحوث ان يحتفظ بسلطته على معرفته اثناء جمع البيانات .

ومن هنا تتعارض طريقة التاريخ الشفاهي- تعارضا نابعا من طبيعتها- مع التصورات الوضعية و الما بعد الوضعية المتعلقة بالعلاقة بين الباحث و المبحوث, ويضاف الى ذلك انها لابد ان تنقل- على الاقل- قدرا ما من السلطة الى المبحوث. ويلتزم العلماء الذين يعملون انطلاقا من الاتجاهات النظرية النقدية بزعزعة دعائم العلاقات القائمة على القهر, و بجعل اولئك الموجودين- بامتداد التاريخ- على هوامش النظام الاجتماعي, بجعلهم محور عملية بناء المعرفة. كما ان العلماء ذوي النزعة النسوية و العلماء الاخرين بمفهوم التعدد الثقافي مهتمون بابطال مركزية السلطة, هادفين من ذلك الى اعطاء النساء والملونين وضعا اجتماعيا محوريا مسئولا داخل عملية بناء المعرفة. ويسعى المفكرون النسويون- فضلا عن ذلك -الى اسماع الناس صوت النساء . ومن خلال قيام التاريخ الشفاهي بتغيير مركز المعرفة وجمعه بين الباحثين والرواة في الاحساس بالالتزام, فانه يتيح الفرصة لقيام التعاون ويفتح الباب للامكانيات المتضادة الموجودة كجزء لايتجزأ من العملية التعاونية في بناء المعرفة. ذلك ان البعد المقاوم لاقتسام السلطة مرتبط علي نحو لا انفكاك له بالافكار الخاصة بالانتاج الديمقراطى للمعرفة, والتي قد تكون- بالذات- مواتية لافكار العلماء المعنيين بالحركات الاجتماعية.

ان استعمال الاتجاهات التعاونية في مجال التاريخ الشفاهي ليحمل اثارا من ذلك التغير القديم في النموذج النظري للمفكرين الاجتماعيين والذي تسبب في ظهور البحث الكيفي وظهور تغيرات واسعة النطاق في تصوراتنا عن طبيعة المعرفة وعن عملية بناء المعرفة. ويدعو بعض المؤرخين الشفاهيين من العاملين في مجال الحركات الاجتماعية, والسياسة العامة, وحركات الناشطين الاجتماعيين, يدعون الى اقتسام السلطة اثناء مراحل المشروع البحثي كلها من اجل الانتاج الديمقراطي للمعرفة, والذي يمكنه ان ينفع الى ابعد حد تلك الجماعات التي غالبا ما نجري بحثنا من اجلها . ويرجع ذلك الى ان التعاون بين الباحث والمبحوث يتيح لنا ان نتكلم مع مبحوثينا وليس نيابة عنهم. ومن شأن هذا الاتجاه الديمقراطي في بناء المعرفة ان يحل بعضا من قضايا القوة الاجتماعية التي تتخلل البحث التقليدي , اذ يتيح لاؤلئك الذين نرغب فيه تمكينهم من ان يعلمونا كيف نحقق اهدافنا. ويذهب كير الى ان اقتسام السلطة يمكنه ان يقوم بدور في بناء الحركات الاجتماعية والسياسية. ويكتب مشيرا الى مؤلف فريش فيقول :

يذهب فريش الى المطالبة" بنوع منى المشاركة الاعمق في اقتسام المعارف ,أي الى نوع من الحوار الضمني احيانا, الصريح احيانا اخرى , الذي يجري انطلاقا من تفضيلات مختلفة, ويدور حول شكل التاريخ, ومعناه , ومضامينه. وهو يذهب الى ان هذا الحوار سوف يعزز"نوع من الوعي التاريخي الذي يتشكل ديمقراطيا و تتقاسمه فئات عريضة من الناس , وهو الامر الذي يترتب عليه تشجيع المشاركة الواسعة في المناقشات التي تدور حول التاريخ , وهي المناقشات التي سوف تثريها طائفة من الخبرات, والرؤى, والقيم الاكثر تمثيلا للواقع. واود ان اضيف ان هذا الحوار المبني على هذا الاساس لابد ان يستمر ليتجاوز نطاق الطريقة التي اعتدنا ان نرى بها التاريخ , بجانب انه لا بد ان يؤثر على الطريقة التي نضع بها خطط السياسة العامة, ويؤثر بدرجة اهم على طريقتنا في اعادة انتاج التنظيم الاجتماعي للمجتمع الذي نعيش فيه.

وفي هذا الاتجاه , فان النهج التعاوني في تحليل التاريخ الشفاهي وعرضه , يمتد نطاقه ليتجاوز مجرد قيامنا بدمج الاصوات والرؤى المتعددة في كتابتنا عن التاريخ ,كما انه يستطيع المساعدة في تشكيل تنظيم مجتمعنا وصياغة السياسة العامة. و بهذه الطريقة يستطيع التاريخ الشفاهي ان يعزز التغير المتعدد التوجهات . لذلك لا يدهشنا ان نرى العلماء المعنيين بالحركات الاجتماعية يتبنون هذا الاتجاه .

وقد وضع كير2003 خطة مشروع بحثي قائم على التاريخ الشفاهي مستعملا التحليل التعاوني الذي يشترك فيه الباحث والمبحوث من اجل دراسة ظاهرة التشرد. وكجزء من اعداده لرسالته لنيل الدكتوراه امضى كير سنوات وهو يعمل في مشروع كليفلاند للتاريخ الشفاهي للمشردين. ويعتبر هذا المشروع , والذي يتضمن اجراء مقابلات بوسائط اتصال متعددة, يعتبر مثالا ممتازا لتطبيق اسلوب اقتسام السلطة بشكل كلي وتام , لان هذا الاسلوب يمكننا على نحو فعال من تحقيق الاهداف البحثية لاي دراسة دقيقة.

وقد اراد كير ان يقوم بالبحث الذي يتيح له اجراء حوار هادف بين المشردين في كليفلاند والذي يستطيع الاسهام في وضع وتنفيذ قدر من التغيير في السياسة العامة التي تهدف الى تخفيض اعداد المشردين في مدن الولايات المتحدة. ويذهب كير الى ان البحوث التي كانت تجري عادة على المشردين قد اخفقت في خلق حوارات على مستوى الشارع (اي على ارض الواقع وبين اصحاب المشكلة) , مما جعل البيانات التي انتهت اليها تلك البحوث تاتي خالية من اي اسهام حقيقي من البيانات التي يقدمها المشردون انفسهم, ومن ثم افقد تلك البحوث القدرة على حشد الدعم المطلوب لعمليات رسم وتنفيذ سياسة اجتماعية فعالة .

لقد سعى قادة الراي وكذلك الاساتذة الجامعيون – الذين كانوا يدرسون احوال المشردين في الولايات المتحدة- للوصول اساسا الى طائفة من رجال الدولة والقادة المحليين, وذوي الاتجاهات التقدمية من المنتمين للطبقة المتوسطة والطبقة العليا, والذين كان قادة الراي واساتذة الجامعات يعتقدون لديهم القوة( السياسية ) على احداث التغيير المنشود. وقد تشكلت هذه الرؤية في جانب منها بتاثير رجال الدولة انفسهم ممن شجعوا هذا الاتجاه, حيث كانوا يلتمسون المشورة في حل مشكلات المشردين, والتي كانوا يطلبونها- بصورة حصرية غالبا- من مقدمي الخدمات الاجتماعية والخبراء من اساتذة الجامعات . كما انه لم يتوافر لدى اساتذة الجامعة من الدوافع ما يكفي لحملها على العمل بصورة تعاونية مع المشردين. وقد توصل بعض هؤلاء الاساتذة الجامعيين- الذين كان لهم صوتا مسموعا على مستوى السياسة العامة- الى ابتكار حلول تخلو من اسهام المشردين واشرافهم , كما انهم يحققوا نجاحا يذكر في محاولاتهم للترويج لما توصلوا اليه من حلول بين المشردين. ويرجع الاخفاق القديم في انتاج ذلك النوع من المعرفة التي استعملت حديثا- بنجاح -في تخفيف حدة مشكلة التشرد , يرجع بصورة الى عامة الى عاملين :

اولا :- فالباحثون لا يستطيعون ان يدرسوا البؤس انطلاقا من وجهة نظر محايدة ومنفصلة عن السلطة.

ثانيا:- والتشرد له بعد بنائي يدعمه اصحاب المصالح الاقوياء المستفيدون من بقاء هذا واستمراره .

وبناء على ذلك اضطر كير للتخلى عن وضع الامتياز التقليدي الذي ينظر فيه الى "الباحث بوصفه عارفا " والعمل مع المشردين باسلوب تعاوني من اجل الوقوف على اتجاهات الناس , وتوليد النظرية والدعوة الى احداث تغييرات سياسية محسوسة , وتنفيذها بصورة فعالة.

ان توسيع الباحث لنطاق الجماعة العلمية من خلال عملية اقتسامه للسلطة مع المشردين, لا يؤدي به الى التخلي عن الموضوعية, بل هو بذلك يقدم بحثا اكثر موضوعية وفعالية. فالنظريات والحلول التي تحشد وراءها الدعم والتاييد هي التي يتم تنفيذها بصورة فعالة, كما انها تنجح في معالجة القضايا التي تكون - من الناحية الموضوعية- في وضع افضل من القضايا التي لا تحشد لنفسها مثل هذا الدعم . وفي ظل هذا الظرف , كان من الواضح ان اقتسام السلطة هو الاسلوب المنطقي الذي يتعين اتباعه في عملية التاريخ الشفاهي , كما انه عزز التكامل بين اختيارات الباحث الانطولوجية, والابستمولوجية, والنظرية, والمنهجية, مما ادى الى ايجاد مجموعة من المعارف القابلة للتطبيق التي تتسم بالتنوع والصلابة. فهذه المعارف لا يمكن فصلها عن العملية الديمقراطية في انتاجها ,ومن ثم فانها تعبر بكل السبل عما تثيره ضمنا من قضايا تتصل " بمن يتعين عليه المشاركة في بناء مجتمعاتنا "